ثباتُ الأخلاق

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لو أنني سُئلتُ أن أُجملَ فلسفةَ الدين الاسلاميّ كلَّها في لفظين، لقلتُ إنها: ثباتُ الأخلاق، ولو سُئِل أكبرُ فلاسفة الدنيا أن يوجز علاجَ الانسانية كلَّه في حرفين، لما زاد على القول إنه: ثباتُ الأخلاق، ولو اجتمع كلُّ علماء أوربا ليدرسوا المدنية الأوربية ويحصروا ما يُعوِزُها في كلمتين لقالوا: ثباتُ الأخلاق

فليس ينتظرُ العالمُ أنبياءَ ولا فلاسفةَ ولا مصلحين ولا علماء يُبدعون له بِدْعاً جديداً؛ وإنما هو يترقب من يستطيع أن يفسر له الاسلامَ هذا التفسير، ويثبتَ للدنيا أن كل العبادات الاسلامية هي وسائل عملية تمنع الأخلاقَ الانسانية أن تتبدّل في الحي فيخلعَ منها ويلبس، إذا تبدلت أحوالُ الحياة فصعِدت بانسانها أو نزلت؛ وأن الاسلام يأبى على كل مسلم أن يكون إنسانَ حالته التي هو فيها من الثروة أو العدم، ومن الارتفاع أو الضَّعة، ومن خمول المنزلة أو نباهتها؛ ويوجب على كل مسلم أن يكون إنسانَ الدرجة التي انتهى اليها الكونُ في سموِّه وكماله، وفي تقلُّبِه على مَنازِلِه بعد أن صُفِّي في شريعة بعد شريعة، وتجربةٍ بعد تجربة، وعلمٍ بعد علم

انتهت المدنيةُ إلى تبدُّل الأخلاق بتبدُّل أحوال الحياة، فمن كان تقياً على الفقر والاملاق وحرمَه الاعسارُ فنونَ اللذة، ثم أيسر من بعدُ؛ جاز له أن يكون فاجراً على الغنى، وأن يتسمح لفجوره على مدِّ ما يتطوَّحُ به المال، وإن أصبح في كل دينار من ماله شقاءُ نفسٍ إنسانيةٍ أو فسادُها

ومن وُلد في بطن كُوخ، أو على ظهر الطريق، وجب أن يبقى أرضاً إنسانية؛ كأن الله سبحانه لم يبن من عِظامه ولحمه وأعصابه إلا خربةً آدميةً من غير هندسة ولا نظام ولا فن... ثم يقابله من وُلد في القصر أو شِبهِ القصر فله حكم آخر، كأن الله سبحانه قد ركب من عظمه ودمه وتكوينه آيةَ هندسةٍ، وأعجوبةَ فن، وطُرفةَ تدبير، وشيئاً مع شيء، وطبقةً على طبقة

ولكن الاسلام يقرر ثباتَ الخلُق ويوجبه وينشئُ النفس عليه، ويجعله في حياطة المجتمع وحراسته، لأن هناك حدوداً في الانسانية تتميز بحدود في الحياة، ولا بد من الضبط في هذه وهذه، حتى لا يكون وضعٌ إلا وراءه تقدير، ولا تقديرٌ إلا معه حكمة، ولا حكمةٌ إلا فيها مصلحة؛ وحتى لا تعلو الحياة ولا تنزل إلا بمثل ما ترى من كِفَّتَي ميزان شُدَّتا في علاقةٍ تجمعهما وتحركهما معاً، فهي بذاتها هي التي تنزلُ بالنازل لتدلَّ عليه وتشيلُ بالعالي لتبيّن عنه. فالاسلامُ من المدنية، هو مدنيةُ هذه المدنية

***

إنها لن تتغيرَ مادة العظمِ واللحم والدم في الانسان فهي ثابتة مقدَّرة عليه، ولن تتبدل السنن الآلهيةُ التي توجدها وتفنيها فهي مصرَّفة لها قاضيةٌ عليها؛ وبين عمل هذه المادة وعمل قانونها فيها، تكون أسرارُ التكوين؛ وفي هذه الأسرار تجد تاريخ الانسانية كلَّه سابحاً في الدم

هي الغرائز تعمل في الانسانية عملَها الآلهي، وهي محدَّدة محكمةٌ على ما يكون من تماديها واختلافِ بينها، وكأنها خُلقت بمجموعها لمجموعها. ومن ثمَّ يكون الخُلُق الصحيحُ في معناه قانوناً إلهياً على قوة كقوة الكون وضبطٍ كضبطه. وبهذه القوة وهذا الضبط يستطيع الخلُق أن يحوِّلَ المادةَ التي تعارضه إذا هو اشتدَّ وصَلُب، ولكنه يتحول معها إذا هو لانَ أو ضعُف. فهو قَدَرٌ إلا أنه في طاعتك، إذ هو قوةُ الفصل بين إنسانيتك وحيوانيتك، كما أنه قوة المَزْج بينهما، كما أنه قوة التعديل فيهما. وقد سُوِّغَ القُدرةَ على هذه الأحوال جميعاً، ولولا أنه بهذه الثابة لماش الانسانُ طولَ التاريخ قبل التاريخ، إذ لن يكون له حينئذ كونٌ تؤرِّخ فضائلُه أو رذائله بمدح أو ذم

فلا عبرة بمظهر الحياة في الفرد، إذ الفردُ مقيدٌ في ذات نفسه بمجموع هو للمجموع وليس له وحده. فانك ترى الغرائز دائبةً في إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنَنٍ من أعمالها، ودائبةً كذلك في إهلاكه في النوع نفسه بسُنَنٍ أخرى. فليس قانونُ الفرد إلا أمراً عارضاً كما ترى؛ وبهذا يمكن أن يتحولَ الفردُ على أسباب مختلفة. ثم تبقى الأخلاقُ التي بينه وبين المجموع ثابتةً على صورتها

فالأخلاقُ على أنها فى الأفراد هى فى حقيقتها حُكمُ المجتمع على أفراده ؛ فقِوامها بالاعتبار الاجتماعىّ لا غير

* * *

وحين يقع الفسادُ فى المُجتمَع عليه من آداب الناس ، ويلتوى ما كان مستقيما ، وتشتبهُ العاليةُ والسافلة ، وتُطرحُ المبالاةُ بالضمير الاجتماعى ، ويقومُ وزنُ الحكم فى اجتماعهم على القبيح والمنكر ، وتجرى المَسبَّرةُ فيما يتعيرونه بالرذائل والمحرَّمات ، ولا يُعجبُ الناسَ إلا ما يُفسدهم ، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ويحلُّ فى محل العادة ؛ فهنالك لا إمساكَ للخُلق السليم على فرد ، ولا بد من تحوّل الفرد فى حقيقته إذ كان لا يجئ أبداً إلا متصدّعاً فى كل مظاهره الاجتماعيــة ، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو ملتوياً ، وكأنه منتقلٌ من عالم الى عالم ثانٍ يغير نواميس الأول

وما شذَّ من هذه القاعدة إلا الأنبياءُ وأفرادٌ من الحكماء ؛ فأما أولئك فهم قوةُ التحويل فى تاريخ الانسانيــة لا يُبعثُ أحدُهم إلا ليَهيجَ به الهيْجُ فى التاريخ ، ويَتطرّقَ به الناسُ الى سُبلٍ جديدة كأنما تطردهم اليها العواصفُ والزلازلُ والبراكين ، لا شريعتُه ومبادئه وآدابه . وأما الحكماءُ الناضجون فهم دائماً فى هذه الانسانية أمكنةٌ بشريةٌ محصَّنة لحفظ كنوزها وإحرازها فى أنفسهم ، فلهم فى ذات أنفسهم عِصمةٌ ومَنَعَة كالجبال فى ذات الأرض

* * *

الأخلاقُ فى رأيي هى الطريقة لتنظيم الشخصية الفَردة على مقتضى الواجبات العامة ، فالاصلاحُ فيها إنما يكون من عمل هــذه الواجبات ، أى من ناحية المجتمع والقائمين على حُكمه . وعندى أن الشعب ظاهراً وباطنا ، فباطنُه هو الدينُ الذى يحكم الفرد ، وظاهره هو القانونُ الذى يحكم الجميع ، ولن يَصلح الباطن المتصل بالغيب ، إلا ذلك الحكم الدينيُّ المتصلُ بالغيب مثله ، ومن هنا تتبيّنُ مواضعُ الاختلال فى المدنيــة الأوربية الجديدة ، فهى فى ظاهر الشعب دون باطنه ، والفردُ فاسدٌ بها فى ذات نفسه إذا هو تحلل من الدين ، ولكنه مع ذلك يبدو صالحا منتظما فى ظاهره الاجتماعىّ بالقوانين وبالآداب العامة التى تفرضها القوانين ، فلا يبرحُ هازئا من الأخلاق ساخراً بها لأنها غير ثابتة فيه ، ثم لا تكون عنده أخلاقا يَعتَدُّ بها إلا إذا درّت بها منافعُه وإلا فهى ضارّة إذا كانت منها مضرّة ، وهى مؤلمة إذا حالت دون اللذات . ولا ينفكُّ هذا الفردُ يتحول لأنه مُطلقٌ فى باطنه غيرُ مقيد إلا بأهوائه ونزعاته وكلتا الفضيلة والرذيلة معدومتان فى لغــة الأهواء والنزعات إذ الغايةُ المتاعُ واللذة والنجاحُ ، وليكن السببُ ما هو كائن . . . .

وبهذا فلن تقومَ القوانينُ فى أوربا إذا فنى المؤمنون بالأديان فيها أو كاثرهم الملحدون ، وهم اليوم يُبصرون بأعينهم ما فعلت عقليةُ الحرب العظمى فى طوائفَ منهم قد خربت أنفسهم من إعانها فتحولوا ذلك التحولَ الذى أومأنا إليه ، فاذا أعصابهم بعــد الحرب ما تزال محاربةً مقاتلةً ترى فى كل شىء روح الدم والأشلاء والقبور والتعفُّن والبِلى . . . . وانتهت الحربُ بين أمم وأمم ، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق

وقديما حارب المسلمون ، وفتحوا العالم ، ودوّخوا الأمم ، فأثبتوا فى كل أرض هدى دينهم وقوةَ أخلاقهم الثابتة ، وكان من وراء أنفسهم فى الحرب ما هو من ورائها فى السِّلم ، وذلك بثبات باطنهم الذى لا يتحول ، ولا تستخفه الحياةُ بنزقها ، ولا تَسفَهُه الدنياتُ فتحمله على الطيش .

ولو كانوا هم أهلَ هــذه الحرب الأخيرة بكل ما قذفت به الدنيا ، لبقيت لهم العقليةُ المؤمنةُ القوية ، لأن كل مسلم فانما هو وعقليتُه فى سلطان باطنــه الثابت القارّ على حدود بينةٍ محملةٍ مقسومةٍ تحوطها وتمسكها أعمالُ الايمان التى أحكمها الاسلامُ أشــد إحكام بفَرْضها على النفوس منوّعةً مكررة كالصلاة والصوم والزكاة لتمنع بها تغيرا وتُحدث بها تغيرا آخر ، وتجعلها كالحارســة للارادة ما تزال تمرُّ بها وتتعهدها بين الساعة والساعة (١)

إنما الظاهرُ والباطنُ كالموج والساحل ؛ فاذا جُنّ الموجُ فلن يَضيرَه ما بقى الساحلُ رَكيناً هادئاً مشدوداً بأعضاده فى طبقات الأرض . أما إذا ماج الساحل ... فذلك أسلوب آخر غير أسلوب البحار والأعاصير ؛ ولا جَرَمَ ألا يكون إلا خَسْفاً بالأرض والماء وما يتصل بهما

* * *

(١) فصلنا هذا المعنى فى كثير من مقالاتنا فى الرسالة كمقالة (حقيقة المسلم) ، و (فلسفة الصوم) وغيرهما

فى الكون أصلٌ لا يتغير ولا يتبدل ، هو قانونُ ضبط القوة وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الحكمة . ويقابلهُ فى الانسان قانونٌ مثله لا بد منه لضبط معانى الانسان وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الكمال . وكل فروض الدين الاسلامىّ وواجباته وآدابه ، إنّ هى إلا حركةُ هذا القانون فى عمله ، فما تلك إلا طُرُقٌ ثابتة لخلق الحسّ الأدبىّ ، وتثبيته بالتكرار ، وإدخاله فى ناموسٍ طبيعىّ باجرائه فى الأنفس مجرى العادة ، وجعله بكل ذلك قوةً فى باطنها ؛ فتُسمّى الواجبات والآداب فروضاً دينيّةً ؛ وما هى فى الواقع إلا عناصرُ تكوين النفس العالية ، وتكون أوامرَ وهى حقائق[1]

من ذلك أرانا نحن الشرقيين نمتاز على الأوربيين بأننا أقربُ منهم إلى قوانين الكون ؛ ففى أنفسنا ضوابطُ قويةٌ متينة إذا نحن أقررنا مدنيتهم فيها — وهى بطبيعتها لا تقبل إلا محاسنَ هذه المدنية — سبقناهم وتركنا غبارَ أقدامنا فى وجوههم ، وكنا الطبقةَ المُصَفّاةَ التى يَنْشُدونها فى إنسانيتهم الراهنة ولا يجدونها ، ونمتازُ عنهم من جهة أخرى بأننا لم نُنْشِئْ هذه المدنيةَ ولم تنشئنا ، فليس حقاً علينا أن نأخذ سيئاتها فى حسناتها ، وحماقتها فى حكمتها ، وتزويرها فى حقيقتها ، وأن نُسيغَ منها الحُلوةَ والمرة ، والناضجةَ والفجّة ، وإنما نحن نحصّلها ونقتبسها ونرتجع منها الرَّجعةَ الحسنة ؛ فلا نأخذُ إلا الشىء الصالحَ مكانَ الشىء قد كان دونه عندنا وندعُ ما سوى ذلك ؛ ثم لا نأخذ ولا ندع إلا على الأصول الضابطة المحكمة فى أديانا وآدابنا ، ولسنا مثلهم متصلين من حاضر مدنيتهم بمثل ماضيهم ، بَيْدَ أن العجب الذى ما يفرغ تعجّبى منه أن الموسومين منا بالتجديد لا يحاولون أولَ وَهْلةٍ وآخرها الا هدمَ تلك الضوابط التى هى كل ما نمتازُ به ، والتى هى كذلك كل ما تحتاج إليه أوربا لضبط مدنيتها ؛ ويسمون ذلك تجديداً ، ولَهُوَ بأن يسمى حماقةً وجهلاً أولى وأحق

أقول ولا أبالى : إننا ابتلينا فى نهضتنا هذه بقوم من المترجمين قد احترفوا النقلَ من لغات أوربا ، ولا عقل لهم إلا عقلُ ما ينقلونه ؛ فصنعتهم الترجمةُ من حيث يدرون أو لا يدرون صنعةَ تقليدٍ محضٍ ومتابعةٍ مُستعبدَة ، وأصبح عقلُهم بحكم العادة والطبيعة ، إذا فكّر انجذب الى ذلك الأصل لا يخرج عليه ولا يتحول عنه . وإذا صح أن أعمالنا هى التى تعملنا كما يقول بعض الحكماء ، فهم بذلك خطرٌ أىّ خطر على الشعب وقوميته وذاتيته وخصائصه ، وبوشك إذا هو أطاعهم إلى كل ما يدعون إليه أن ... أن يترجموه الى شعب آخر ....

* * *

إن أوربا ومدنيتها لا تساوى عندنا شيئاً إلا بمقدار ما تحقق فينا من اتساع الذاتية بعلومها وفنونها ، فانما الذاتيةُ وحدها هى أساسُ قوتنا فى النزاع العالمىّ بكل مظاهره أيّها كان ؛ ولها وحدها ، وباعتبار منها دون سواها ، نأخذ ما نأخذه من مدنية أوربا ونهمل ما نهمل ؛ ولا يجوز أن نترك التثبت فى هذا ولا أن نتسامح فى دقة المحاسبة عليه

فالمحافظة على الضوابط الانسانية القوية التى هى مظاهرُ الأديان فينا ، ثم إدخالُ الواجبات الاجتماعية الحديثة فى هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته ؛ ثم تنسيقُ مظهر الأمة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط ؛ ثم العملُ على اتحاد المشاعر وتمازجها لتقويم هذا المظهر الشعبىّ فى جملته بتقويم أجزائه . هذه هى الأركانُ الأربعة التى لا يقوم على غيرها بناءُ الشرق

والالحاد والنزعات السافلة وتخانيث المدنية الأوربية التى لا عمل لها إلا أن تظهر الخطر فى أجل أشكاله . . . ثم الجهلُ بعلوم القوة الحديثة وبأصول التدبير وحياطة الاجتماع وماجرى هذا المجرى . ثم التدليس على الأمة بآراء المقلدين والزائفين والمستعمرين لمحق الأخلاق الشعبية القوية ، وما اتصل بذلك . ثم التخاذل والشقاق وتدابر الطوائف وما كان بسبيلها . تلك هى المعاول الأربعة التى لا يهدم غيرُها بناءَ الشرق

فليكن دائماً شعارنا نحن الشرقيين هذه الكلمة : أخلاقنا قبل مدنيتهم

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

---

(١) هذا هو الذى ضل عنه مصطفى كمال ومن شايعوه ، ومن قلدوه ، ومن انخدعوا فيه ، ولو فهمه حق الفهم لجدد تركيا وجدد العالم الاسلامى كله ، ولكن الرجل غريب عن هذه المعانى قصير النظر ، فما زاد على أن جدد ثوباً وقبعة ...

إلى البغدادى فى بغداد : سنقدم بعد قليل على موضوع الزيال والله المستعان ، فقد كنا نهيب هذا الموضوع إذ هو عندنا ليس الزيال ولكنه نصف المسألة الانسانية كما يقول عن نفسه الرافعى